

قانون الرّحالة

منذ نحو ألف عام نبغ في بيت المقدس عالمٌ جليل اسمه أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، نظر فرأى أن العلماء قد سبقوه في اختراع العلوم وترتيبها، ثم خلف من بعدهم خلفٌ شرحوا ما دونوا، واختصروا ما طولوا، فعز عليه ألا يبتكر كما ابتكروا، وألا ينفرد بشيء كما انفردوا، وعاف أن يكون صدّي لغيره، يجمع ما فرقوا، أو يفرق ما جمعوا، فأخذ يستعرض جوانب نقصهم حتى يكملها، ونواحي أغفلوها حتى يبتكرها. قال: «فرايت أن أقصد علمًا أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه»، ذلك أنه رأى الملكة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لم توصف وصفًا كافيًا شافيًا، لا من ناحية جغرافيتها، من مفاوز وبحار، وبحيرات وأنهار، ومدن وأمصار، ونبات وحيوان، ولا من ناحيتها الاجتماعية «من اختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم، وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم، ومكاييلهم وموازينهم، ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجذب».

ورأى — كما قال — أن ذلك علم لا بد منه للتاجر والمسافر، والملوك والكبراء والقضاة والفقهاء.

نعم قد اتجه بعض العلماء قبله إلى هذا الباب، ولكنه رأى أنهم قصرُوا وما أنصفوا، فمنهم من نقل في كتبه ما سمع من أفواه الناس واكتفى بذلك، ومنهم من اقتصر على المصورّ الجغرافي وشرحه، ومنهم من اقتصر على ذكر المدن المشهورة. وعلى كل حال فقد استعرض كل ما ألف قبله في هذا العلم فلم يرتضه.

فانتدب مؤلفنا نفسه لهذه المهمة، وإكمال هذا النقص، وإحراز قصب السبق، ورسم لنفسه خطة محكمة أتم إحكام، دقيقة أكمل دقة، حتى ليصح — بحق — أن

تعد «قانون الرحالة»، فهو يقول: «إني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية؛ ولكن ما هي هذه القواعد المحكمة التي وضعها؟ فأول كل شيء قرر أن يرحل إلى الأقطار الإسلامية ويشاهدها بنفسه ففعل، فإذا دخل بلدة درسها أتم درس، وعلى حد تعبيره «ذاق هواءها، ووزن ماءها، ولقي علماءها، وخدم ملوكها، وجالس القضاة والفقهاء، واختلف إلى الأدباء والقراء، وخالط الزهاد والمتصوفين، وحضر مجالس القصاصين، وتاجر فيها، وعاشر أهلها، ومسح إقليمها، ودار على تخومها، وفتش عن مذاهب سكانها، ودقق النظر في ألسنتهم وألوانهم». وفي الحق أن الرجل كان في عمله المثل الأعلى للرحالة، فقد عمل كل ما يمكن عمله لدراسة البلاد والوقوف على عاداتها وأحوالها. ولا أدل على ذلك من أن أتركه يتكلم إلى القراء عما عمله في هذا الباب. قال:

لم أترك شيئاً مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً، فقد تفقّعت وتأديت، وتزهدت وتعبدت، وفَقَّهت وأدَّبت، وخطبت على المنابر، وأدَّنت على المنائر، وأممت في المساجد، واختلفت إلى المدارس، وتكلمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائد، وطُردت في الليالي من المساجد، وتهدت في الصحاري، وسحت في البراري، وصدقت في الورع زماناً، وأكلت الحرام عياناً، وصحبت عُبادَ جبال لبنان، وخالطت حيناً السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزنبيل، وأشرفت مراراً على الغرق، وقُطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبراء، وخالطت السلاطين والوزراء، وصاحبت في الطرق الفساق، وبعض البضائع في الأسواق، وسُجنت في الحبوس، وأخذتُ على أني جاسوس، وعاينت حرب الروم في الشواني^١، وضرب النواقيس في الليالي، ونزلت في عَرَصَة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكمة، وكم نلت العز والرفعة، ودبَّرت في قتلي غير مرة، ولبست خلع الملوك وأمروا لي بالصلوات، وعريت وافتقرت مرات، ورُميت بالبدع، واتهمت بالطمع، واتبعني الأرذلون، وعاندني الحاسدون، وسُعي بي إلى السلاطين، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية، ورأيت يوم الغوارة

^١ الشواني: سفن كبيرة حربية.

وعيد بربراة، ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم، سوى ما دخل عليّ من التقصير في أمور الشريعة، ولم تبق لي رخصة مذهب إلا وقد استعملتها، وما سرت في جادّة وبينني وبين مدينة عشرة فراسخ إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها، وربما اكتريت رجالاً يصحبونني، وجعلت مسيري في الليل لأرجع إلى رفقائي، ومثل هذا كثير. وإنما ذكرت هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أننا لم نضعه جزافاً، ولا رتبناه مجازاً، فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع.

هذا برنامج فيما شاهده. أما ما لم يشاهده فبرنامج فيه «أن يسأل ذوي العقول من الناس، ومن لم يعرف بالغفلة والالتباس، وأن يسأل عن الشيء الواحد جماعة مختلفة؛ فما اتفقوا عليه أثبتته، وما اختلفوا فيه نبذه، وما حكوه ولم يقبله عقله أسنده إلى من وراءه أو قال فيه «زعموا».

وهذا منتهى الصدق والإنصاف، والدقة والتحري.

وجاءته فكرة «الخرائط» فعملها في كتابه، بل جاءته فكرة الخرائط الملوية واختيار الألوان المناسبة فقال:

ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها الملحّة بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة، ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليه الخاص والعام.

غير أن هذه الخرائط — مع الأسف — لم تصل إلينا مع كتابه.

وقد ساح في جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب ثم في بلاد فارس والسند والهند، ودوّن ما شاهده حسبما وضع من قواعد، وألّف في ذلك كتاباً سنة ٣٧٥هـ سماه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»^٢.

وقد لخص رأيه في الأقاليم التي زارها، في جملة في ثنايا الكتاب فقال: «أظرف الأقاليم العراق، وهو أخف على القلب، وأحد للذهن، وبه تكون النفس أطيّب، والخاطر

^٢ طبع في مدينة «ليدن» سنة ١٩٠٦م.

أدق. وأوسعها فواكه، وأكثرها علماء وأجلة «المشرق»^٣. وأكثرها صوفًا وقزًا ودخلا على قدرة الديلم^٤. وأجودها ألبانًا وأعسالًا، وألذها أخبازًا وأمكنتها زعفرانًا الجبال^٥. وأسفلها قومًا، وشُرُّهم أصلًا وفصلًا خوزستان. وأحلاها تمرًا وأوطؤها قومًا كرمان. وأكثرها فانيزا وأرزازًا ومسكًا وكفازًا السند. وأكيسها قومًا وتجارًا ... فارس. وأشدها حرًا وقحطًا جزيرة العرب. وأكثرها بركات وصالحين وزهادًا ومشاهد، الشام. وأكثرها عبادًا وقرآءً وأموالًا ومنتجرًا وحبوبًا، مصر. وأخوفها سبلاً وأجودها خيلًا وأوسطها قومًا أقور^٦. وأجفاها ... وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب».

وقال في موضع آخر: لم أر أطمع من أهل مكة، ولا أفقه من أهل يثرب، ولا أعف من أهل بيت المقدس، ولا أدب من أهل هَرَاة، ولا أذهن من أهل الري ... ولا أصح موازين من أهل الكوفة، ولا أحسن من أهل حمص وبخارى، ولا أحسن لحي من الديلم، ولا أشرب للخمور من أهل بعلبك ومصر، إلخ ... فإن سأل سائل: أي البلدان أطيّب؟ نظر، فإن كان يطلب الدارين، قيل له: بيت المقدس، وإن كان يطلب النعمة والحياسة والرخص والفواكه، قيل له: كل بلد أجزاك، وإلا فعليك بخمسة أمصار: دمشق، والبصرة، والري، وبخارى، وبلخ. ومن أراد التجارة فعليه بعدن أو عُمان أو مصر».

وقال في موضع ثالث: «واعلم أن بغداد كانت جليلة في القديم، وقد تداعت الآن للخراب، واختلت وزهد بهاؤها، ولم أستطعها ولا أعجبت بها، وإن مدحناها فللمتعارف. وفسطاط مصر اليوم كبغداد في القديم، ولا أعلم في الإسلام بلدًا أجل منه» إلخ. ولما جاء مصر في رحلته أعجب بالفسطاط، وقال: إنه لم ير في الأمصار أهل منه، وأعجب بما فيه من كثرة العلماء، وقال: ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامع (جامع عمرو) وقد سرّته أطعمته وحلواه، وكثرة بقوله وفواكهه، وأعجبت نغمة أهله بالقرآن، ودهش من كثرة المراكب في النيل، ومن كثرة المصلين في المساجد، ولكنه لم تعجبه كثرة البراغيث بها، وانتقد عدم عناية المصريين بالنظافة، وازدحام مساكنهم بالسكان، وكثرة الكلاب فيها، كما انتقد شرب الخمور، وانتشار الفجور، وكثرة السباب.

^٣ يريد بالمشرق الدولة السامانية.

^٤ يطلق الديلم على الإقليم الذي فيه جرجان وطبرستان.

^٥ يريد بالجبال الإقليم الذي يشمل الري وهمدان وأصفهان وقاشان إلخ.

^٦ أقور: هي الجزيرة بين الموصل والفرات.

وحدثنا أن أهل الشام يعيبون على أهل مصر ثلاثة: «أن مطرهم الندى، وطيرهم الحداء، وكلامهم رخو مثل النساء».

وأياً ما كان فقد نخالفه ويخالفه المحدثون فيما وصف من مزايا الأقاليم وعيوبها، ولكن عذره أنه وصف ما شاهد، كما وصف أثر هذه المشاهد في نفسه، وقد يكون اختلاف رأينا عن رأيه اختلاف زمان، فزماننا قد تغيرت فيه الأوضاع والأوصاف عما كانت في زمنه، وألف سنة ليست بالقليلة في تغيير الشعوب.

وعلى كلِّ فأهم ما للرجل برنامجه الدقيق الذي وضعه والتزمه، ولا يزال إلى الآن في نظري المثل الأعلى للرحالة، وقل أن يفوقه فيه الرُّحَال المحدثون. فمن منهم يفعل ما يفعل؟ فيبيع في الأسواق ليعرف الحالة التجارية للبلاد التي رحل إليها، ويخدم ليعرف حال القصور، ودخائل البيوت، ويخالط التجار ويأكل مآكلهم ليتعرف عاداتهم، ويتشكّل — كما قال — بكل الأشكال إلى الكدية؟
اللهم إن هذا — في بابه — لعظيم!